

تجليات ظاهرة التطير في شعر ابن الرومي

أ. عباس بلحاج جامعة الوادي

ملخص :

الأدب ظاهرة إنسانية سائرت حياة الإنسان وتطوراتها، حيث عبر عنها بمختلف الطرائق التي جاء بها الكثير من الأدباء كابن الرومي ، فأضحت نتيجة أدبية ظلت خالدة، كونها الدعامية الأساسية التي ارتكز عليها الناس لإدراك ما خفي عنهم وفهمه واكتشافه من أنفسهم وما حولهم، كما كانت هذه الأعمال في أمس الحاجة إلى ما يقدمها ويجدد دورها ومكانتها لأن الأدب يحيا ويزدهر إذا صار بؤرة اهتمام النقد.

Abstract :

Literature is a human phenomenon that took a place in man life in its different stages so he expressed it in many manners that come from writers AS IBN EL -ROUMI hence it would be an eternal Literature result that has been considered as the focus of people in understanding and discovering all that was hidden in their selves and around them. On the other side these works needed to be introduced to people for having its new role that Literature could have a new life and prosperity when critics focus on it.

قام العقاد بدراسيتين نقديتين تعتبر من أهم الدراسات النقدية في المنهج النفسي، حيث تناول شاعرين من أشهر شعراء العصر العباسي "أبونواس وابن الرومي" بالدراسة والتحليل متبعا في ذلك طريقة التحليل النفسي. وقد حاول العقاد البحث عن المفتاح الذي ساعده في الكشف عن خبايا شخصية ابن الرومي، وأسرار الدلالات التي تخفيها الشخصية من خلال شعره. فإذا كان أبو الطيب المتنبي قد اشتهر بالنرجسية وأبو العلاء المعري بالتشاؤم، فإن ابن الرومي قد عرف بتطيره اللامحدود، حيث ابتكر لنفسه عالما خاصا يختلف عن العوالم الأخرى، فجسد فيه كل ما نسج في مخيلته. ولذلك عاش شاعرا يغلب عليه طابع العزلة والانفراد، لا يربطه بأحداث عصره سوى خيوط شفاقة قواها حسه وذوقه الجمالي، الذي ينفر من الشاعر حيث يراها. ويعرف العقاد الطيرة بقوله "الطيرة شعبة من مرض الخوف الناشئ من ضعف الأعصاب واختلالها، إلا أنها خوف خاص له بواعثه وأعراضه"¹.

أما إنعام الجندي فتقول: "التطير أن يرى المرء في مظاهر البشاعة نذير سوء وشر، وكان الجاهليون إذا عموا على أمر طاروا طائرا، فإن مرَّ على يمينهم تقاءلوا، وإن مرَّ على شمائلهم اعتقدوا الفشل عليهم"².

ولعلّ هناك أسبابا ودوافع دفعت بشاعرنا إلى الاتصاف بظاهرة التطير، وقد تمثلت في تلك الأحداث الكبرى التي زلزلت حياته، من تزعزع الكيان الأسري، وتغير جذري على مستوى الشخصية والمزاج، حيث كان يصلي للمحاسن ويتضعض للمقابح، مع اختلال أعصابه، وبالتالي مثّل في حياته اليومية الإعتزال والنفور. وبالرغم من ذلك فابن الرومي كان دقيق الملاحظة، حريصا على تتبع العيوب والتشوهات الجسدية التي يحملها بعض الناس حيث يقول:³

أَيُّهَا الْمُحْتَفِي بِحُجُولٍ وَبِخُورٍ أَيْنَ كَانَتْ عَنْكَ الْوُجُوهُ الْخُسْبَانُ؟
قَدْ لَعَمَّ رِي رُبْتُ أَمْرًا مَهِينًا سَاءَ لِنَفْسِي فَيْكَ أَيُّهَا الْخُلَصَانُ
فَتَحَكَّ الْمَهْرَجَانُ بِالْحَوْلِ وَالْعُورِ أَرَانَا مَا عَقِبَ الْمَهْرَجَانُ
كَانَ مِنْ ذَلِكَ فَفَذَكَ شَكَّ الْخُرَّةِ مَصْبُوغَةً بِهَا الْأَكْفَانُ
وَيُحَلِّي مُؤَمِّلٌ لِي جَلِيلٌ لَجَّ فِيهِ الْجَفَاءُ وَالْهَجْرَانُ
قَفَّ إِذَا طَيْرَةٌ تَلَقَّتْكَ وَانْظُرْ وَاسْتَمِعْ ثُمَّ مَا يَقُولُ الزَّمَانُ
خَيْرُ اللَّهِ أَنْ مَشَأَمَةً كَانَتْ لِقَدَمٍ وَخَيْرُ الْقَرَانُ

من خلال الأبيات السابقة يتضح لنا أنّ شاعرنا لم يقصر في طيرته، فحده النظر والملاحظة للذين كان يتمتع بهما الرجل في تتبعه العيوب الخلقية، قاداه إلى التشاؤم والتطير من عجز كانت تحمل في إحدى عينيها نكتة والصبية الحول الذين افتتح القاسم ابن عبد الله المهرجان بهم كانوا نذير شرّ وشؤم.

إلا أن العقاد يوضح أن ما ذكر من أخبار طيرة ابن الرومي لا يرجع واحدة منها إلا بعد الخمسين من عمره، ومن هنا تبين أن فكرة الخوف وظاهرة التطير قد ازدادت تأصلا فيه وبالتحديد في السابعة والخمسين وما بعدها خاصة سنوات الشيخوخة- التي تكثر فيها الهواجس والشكوك لدى كبار السن، كما نجد أيضا في "....الأربعين عدّ نفسه من الموتى إلا ما تذكره الحياة، وفي الخامسة والخمسين والستين كأنه عابر طريق يحصي ما عبر منها وما بقي له أن يعبر"⁴.

مزاج ابن الرومي المضطرب الأعصاب جعله يتطير لكل ما يقع عليه بصره، فيصب عليه ظلاله ورآه وهو اجسه النفسية، والذي يوضحه هذا الرأي "كان ابن الرومي شديد الطيرة، يتوهم النحس في الأشخاص والأسماء والعاهات والعيوب، فهجا كل شيء يتطير منه"⁵، بما في ذلك الظواهر الطبيعية التي كثيرا ما انعكست في شعره.

و ضمن هذا الإطار يقول ابن الرومي واصفا غروب الشمس:⁶

وقد رَنَقَتْ شَمْسُ الْأَصِيلِ وَتَعَضَّتْ عَلَى الْأَفْقِ الْغَرْبِي دَرَسًا مُزْعَزَا
وَوَدَّعَتْ الدُّنْيَا لِنَقْصِي نَحْبَهَا وَشَوَّلَ بِأَقْيِ عُمْرِهَا فَنَشَعَشَعَا
وَلَا حَظَّ النَّوَارُ وَهِيَ مَرِيضَةٌ وَقَدْ وَضَعَتْ حَدًّا عَلَى الْأَرْضِ أَضْرُعَا
كَمَا لَأَحْظَتْ عَوَادَهُ حِينَ مُدْنِفٍ تَوَجُّعًا مِنْ أَوْصَالِهِ مَا تَوَجَّعَا
وَضَلَّتْ عَيُونُ النَّوَارِ تَخْضَلُ بِالْأَنْدَى كَمَا اغْرُورَقَتْ عَيْنُ الشَّجِيِّ لِتَجْمَعَا

إنَّ الإحساس الفاجع بالموت، بالانقضاء مع سرعة زوال اللذة والحياة يلزم الرجل في ظل مواقفه وأوقاته. فهو في هذه المقطوعة يصف الشمس إذ نجده ينقل إلينا مشهداً متعدّد الإيحاءات والدلالات، أو رمزا لما يحمله ذلك المنظر ساعة الغروب. فنحن مع شمس ابن الرومي وروضه، مع شمس باكية حزينة، تندب حالها لأنها أشرفت على الموت، فهي شاحبة صفراء كالورس المزعزع حين راحت تودع الدنيا وزهرات الروض بنظرات حزينة، بعد أن أوْشك عمرها أن ينقضي.

والحق أن الإقرار بأن العقاد اهتم بسيكولوجية الصورة البشعة التي غلبت على نفسية شاعرنا، وهذا حين أقر لها دراسة قائمة بذاتها بحيث لجأ إلى الكشف عن معالم الإدراك الحسي والباطني لنفسية الشاعر التي أرّفته، ليطمئن بالفردى ملتصقا الجوانب النفسية التي غلبت التطير والتشاؤم على الملكة الشعرية والفنية عند ابن الرومي "إن الشعر كأى خلق آخر نسج خيوطه الإحساس والعاطفة والفكرة، وأن أى تحليل للفن يجب أن يقوم في ضوء العلاقات والارتباطات المتداخلة الملتحمة بين الخيوط المشكلة للنسيج، والتي لا يمكن لها أن توجد منفصلة بعضها عن بعضها الآخر"⁷.

لقد دعا العقاد إلى تحليل الشعر من الوطأة الحسية التي وطئت هيكله قرونا طويلة، لمّا ألفا في الوقت نفسه أنّ الشعراء المقلدين قد بالغوا وأفرطوا في وصفهم الشعر بالحسي، متوهمين أنها قمة له، ولأنهم كانوا في غفلة عن الحقيقة النفسية والشعورية للتصوير الذي "هو من عمل النفس الحركية، من خيال وتصور وشعور"⁸.

ومهما يكن من أمر فالنفس هي مقياس الوقت في الإحساس وفي التصوير الشعري الذي يلبسه الشاعر معنى حسياً، والخيال يفرق هذا المقياس، حينها تملك النفس حرية التصرف فيه، وقد تختزل الزمن وقد تطيله بما يناسب رغبتها دون الحد من طلاقة المحاسن. فالنفس في رأي العقاد بخلاف الساعة الحركية التي هي من حديد أو نحاس، إنها دهر سرمد لازدحامها بالمنظر بعد المنظر، والخيال بعد الخيال إلى غير نهاية، يحدها الحس.⁹

من هذه الملابس النفسية لحقيقة التصوير، تظهر مهمة الشعر في عنايتها بالحركات النفسية لا بوصف الصور المحسوسة. وهنا تتضح ملكة الشاعر على خط يسير من النشاط الحسي والباطني، لأنها ترسم جزءاً وحيزاً صغيراً للعالم، حتى ولو أفرغت هذه الملكة كل طاقاتها الشعورية في رسم هذه الصور النفسية، ولو أغنتها بالظلال والألوان فلن ترقى إلى مستوى الصورة الكامنة.

نستخلص مما سبق أن الجانب الحسي هو مرحلة تمرُّ بها الصورة الشعرية، لتمتزج بالجانب النفسي الذي تحكمه المشاعر وتتلقاه النفس، فيقوم الشاعر بمهمتين: مهمة نفسية ومهمة جمالية "أي وصف ما يقع تحت الحس، فيعزز في حلة قشبية تُحرّك فينا أوتار الطرب"¹⁰.

تأسيساً على هذا الفهم النفسي المتداعي، فإن الصورة الشاحبة التي اعتورت موهبة الشاعر (مقصودة تكون عند أناس ولا تكون عند آخرين) فهي "لا تُخضع المنطق للتسلسل، ولا تستجيب للحيل اللفظية، بل يمتزج كل عنصر فيها بتجربة الشاعر القائمة لتعكس فوق جمالها الفني وجمال الطبيعة حالة هذا الشاعر النفسية".¹¹

إنّ النفسية اليائسة الكليّة للشاعر حين ارتمت في أحضان الأصيل، واندست في أضيائه تناجيه ويحاورها، كأنهما حبيبان يتهامسان اللوعة والأسى والشوق في مشهد رهيب، شاركت رهبته الألوان والحركات وكل عناصر الطبيعة الممتزجة بشعور قاتل إذ يحيا مع الشمس الغاربة حتى تضع على الأرض خدّاً أضرع من وحشة الفراق، يقول:¹²

وَأَذْكُرُ نَسِيمَ الرِّوْضِ رَيَّاعَانَ ظِلِّهِ
وَعَنَى مُغْنِي الطَّيْرِ فِيهِ فَسَجَّعَا
وَعَرَّدَ رَبْعِي الدُّبَابَ خِلَالَهُ كَمَا
حَنَحْتُ النَّشْوَانَ ضَنْبَجًا مُسْرَعَا

إنها زفرت حارقة ونفثة كئيب كريب، وأنشودة نفس ورهبة وجيعة، فهي تعانق خيوط الأمل في رحيل الشمس لتُثَبِّتَها شكواها ودفنها في شعور عميق لوحشة الرحيل على الشمس من ترنيق وضراعة وانكسار يائس كنظرة المريض إلى العوادر.

إن هذا الضرب الشعري تشخيص في النفس، يتمثله ابن الرومي ويلبسه لبوساً من خواطره وأفكاره، يقول:¹³

يَذْكُرُنِي الشَّبَابُ وَمِیْضَ بَرَقٍ
يَذْكُرُنِي الشَّبَابُ جَنَاتٍ عَدَنِ
وَكَاثَتْ أَبْكُنِي لِيَدِي اجْتِنَاءً
وَسَجَّعَ حَمَامَةٍ وَحَنَانَ نَابٍ
عَلَى جَنَابَاتٍ أَنْهَارٍ عِذَابٍ
فَعَادَتْ بَعْدَهُ لِيَدِي بِاحْتِطَابٍ

لقد ساق ابن الرومي وميض الشباب وبكاء حمامة على أيكاتها مستجدياً المأتم داعياً الآلام مأتماً يبكيه لجنى الشباب. لقد زال كل جميل من الوجود في نفسه وعينه، فكل الأيام النضرة والخصبة صيرها جدبا وقحطا كما صيرّ اليناغة احتطاباً. وليست الطبيعة في النهاية سوى ذلك الأسر العجيب، والملاذ اللطيف لكل ما دنّسه المجتمع وقسا عليه وحرّمه.

نُصِبَ ابن الرومي من الأوائل الذين كان لهم قصب السبق في شاعريته التي تشخص الشعور، لأنه مصور بالفطرة مهياً لها، فهو لا يلتفت إلّا تنبّهت فيه الملكة الحاضرة، وأخذت في العمل موفقة مجيدة سواء ظهر عليها أو سها عنها. لقد اضطلع ابن الرومي بمهمة الرسام الذي بسط أمامه لوحته، وأقبل على الوجوه والأشكال يتفرّسها حين يطيل النظر على ملامحها وإشاراتهما، وما تكشف عنه من دلالات ومعان. فالصورة الشعرية إذًا ولادة عسيرة يشترك في تشكيلها النظر، الفن، الجمال، الخيال، الوعي، الشعور، النفس والقرينة، دون إهمال اللون والحركة والزمان والمكان وكل مظاهر الحياة والطبيعة.

هذه الملكات مجتمعة، هي التي تقوم على أساسها الصورة الشعرية، وبها استطاع ابن الرومي أن يحقق في شعره جل عناصر الصورة الشعرية المشخصة، لأنه يملك ما يسميه النقاد "النفس الفنية" الدالة على تمازج ملكتي الشعر والتصوير فيه وتفاعل مشاعره بصوره، ويشارك في هذه النفس معظم الفنانين من شعراء، مصورين وموسيقيين، لأنهم يملكون جميع وسائلها "نجد الواقع وقد استعيد بدقة متناهية عبر اللفظ والصورة والحادثة ليس فيه حذف ولا إضافة، تساوي الواقع الفني في القصيدة مع الواقع الواقعي في الحواس".¹⁴

و التصوير عند ابن الرومي مرتبط بملكة الشاعر الخالقة وموهبته المبدعة، وهو أمر مشروط في عملية التصوير الشعري على تجسيد ما يعتل في نفسه من الجسوم والمعاني. ووظيفة الشاعر -في اعتقادي- ليست احتواء كميا لأشياء طبيعية وإحكام سعتها وإجادتها، وإنما هي انتقاء نوعي لما تتطلبه تلك الدقة "ليست الكلمة عند ابن الرومي هي لمجرد التعبير فحسب، إنما هي للتصوير قبل كل شيء، فالشاعر يتصور المشهد قبل أن يصل به إلى الشعر، وإذا ما عمد إلى الكلمات فمن أجل أن تقوم بدورها في رسم المشهد كما هو في مخيلة الشاعر أو أمام ناظريه، حتى إذا ما أدت دورها فليس لها بعد ذلك إلا أن تستقر في مكانها- وإذا هي تقوم مقام الألوان".¹⁵

انشغل ابن الرومي بالمشهد والصورة، حين تتدفق أعراس نفسه، إذ هو بلبلها ورسول أنسها حين تنبعث البواطن إلى الظواهر، يقول:¹⁶

خَجَلْتُ خُدُودَ الْوَرْدِ مِنْ تَفْضِيلِهِ	خَجَلًا تَوَرَّدُهَا عَلَيْهِ شَاهِدُ
لَمْ يَخْجَلِ الْوَرْدُ الْمُوَرَّدُ لَوْنَهُ	إِلَّا وَنَاجِلُهُ الْفَضِيلَةُ عَائِدُ
فَصَلَّ الْقَضِيَّةُ أَنَّ هَذَا قَائِدُ	زَهَرَ الرِّيَاضِ وَأَنَّ هَذَا طَارِدُ
شَتَّانَ بَيْنَ اثْنَيْنِ هَذَا مُوعِدُ	بِتَسْلُبِ الدُّنْيَا وَهَذَا وَاعِدُ
وَإِذَا احْتَفَظْتَ بِهِ فَأَمْتَعُ صَاحِبُ	بِحَيَاتِهِ لَوْ أَنَّ حَيًّا خَالِدُ
لِلرَّجْسِ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَإِنْ أَبَى	أَبٍ وَحَادٍ عَنِ الطَّرِيقَةِ حَائِدُ

حركات الشعر في النفس لا تملك لنفسها حراكا ما لم يكن لها من الداخل تيقظ نفسي، يخرجها من حالة الجمود والهمود إلى حالة النشاط والحركة في مشهد يعج بالحياة، وهي لا تسر لذاتها أو تحزن لذاتها، وإنما تسر الأشياء أو تحزن بما تكسوها الخواطر من الهيئات، وتعيرها الأذهان من الصور. إنه الوجدان يسطع في وصف الرياض، وإنها ترجمة أسرار الطبيعة في روعة سحرها، بل هو شعر الطبيعة حيث تخضر الصورة ويهلل النغم، ويشرق الجمال يقول:¹⁷

إِذَا شَبَتْ حَيَّتِي رِيَّاحِينَ جَنَّةٍ	عَلَى سَوْقِهَا كُلَّ حِينٍ تَنْفَّسُ
وَإِنْ شَبَتْ أَلْهَانِي سَمَاعٌ لَمَثَلِهِ	حَمَامٌ تَغْنَى فِي غُصُونِ ثُوسُوسُ
ثَلَاعِبُهَا أَيْدِي الرِّيَّاحِ إِذَا جَرَتْ	فَتَسْمُو وَتَحْنُو تَارَةً فَتَتَكِسُ
إِذَا مَا أَعَارَتْهَا الصَّبَا حَرَكَاتِهَا	أَفَادَتْ بِهَا أَنْسَ الْحَيَاةِ فُتُونُ
ثَوَامِضُ فِيهَا كُلَّمَا تَلَمَّعَ الضُّحَى	كَوَاكِبُ يَذْكُو نُورُهَا حِينَ تَشْمِسُ

إن الشعر في النفس لحظات خالدة من حياة الطبيعة الخضراء الفاتنة إذ تتخيل الأرض تخاليل الحسنة في الأبراد، ثم تتبلج الحياة الإنسانية في الرياض وترقى وتسمو، فيغدو المشهد في نفس الشاعر انطبعا حقيقيا لما هو سار في الواقع، يُضيف إليه الشاعر بعضا من ذاته ليرسم عالمين، عالمه الداخلي الممزوج بالفن، وعالمه الخارجي المتمثل في الواقع المنحوت على شاكلة مثال الحياة.

لا جرم أن المصور لا يخلو من معاني الشعر النفسية وأصداء النغم الصادحة التي تراها العين معكوسة على صور الأشياء والموسيقى، فهي لا تخلو كذلك من الابتهاج بمحاسن المناظر والمعاني التي يترجم عنها في الأصوات والألحان، ولو أمكننا ذلك أن نتخيل قريحته بمعزل عن الأبصار والأسماع والأيدي والألسنة. لم يعن ابن الرومي بالطبيعة وحتى الحياة المادية فحسب، بل ازدج أشعاره المثالية التي تقرّ بالفضل وتأمل في بلوغ المجد التليد، إذ بلغ من روحه التعسة المعذبة أشجى الألحان التي تطرب، وزاد على ذلك للجو القدرة على الخلق والإبداع، يقول: ¹⁸

كَأَنَّ الثَّرِيَّاءَ إِذْ تَجَمَّعَ شَمْلُهَا رِياضُ رَبِيعٍ فَصَلَّتْ بِشَقِيقِ
وَقَدْ لَمَعَتْ كَأَنَّ بَرِيقَهَا فَلَا يَدُّ دُرٍّ فَصَلَّتْ بِعَقِيقِ

نفسُ القصة والمسرحية يحاول دائما أن يثبت حضوره في شعر ابن الرومي وهو باد، ظاهر وجلي في وصفه، وهذا في تسلسل الأدوار التي تقوم بها الأرض الرياض، النسيم، الرياح والحمائم، وإذا نحن في جو مسرحي فائن ومؤثر حيث يقول: ¹⁹

وَرِياضُ تُخَايِلُ الْأَرْضُ فِيهَا خِيَلَاءُ الْفَتَاةِ فِي الْأَبْرَادِ
ذَاتُ وَشْيٍ تَنَاسَجَتْهُ سِوَارُ لَبِقَاتٍ بِحَوَكِهِ وَغُودِ
مِنْ نَسِيمٍ كَأَنَّ مَسْرَاهُ فِي الْأَرْضِ وَاحٍ مَسْرَى الْأَرْوَاحِ فِي الْأَجْسَادِ
حَمَلَتْ شُكْرَهَا الرِّيحُ فَأَدَّتْ مَأْثُودِيَّهِ السُّنُ الْعُودِ
مَنْظَرَ يُعْجِبُ تَحِيَّةَ أَنْفٍ رِيحُهَا رِيحُ طَيْبِ الْأَوْلَادِ
مَسْمَعٌ مُطْمَرَّبٌ إِذَا شِئَتْ مِنْهُ لَكَ عَنْ كُلِّ طَارِقٍ وَتِلَادِ
تَتَدَاعَى بِهَا حَمَائِمُ شَتَّى كَالْبَوَاكِ وَكَالْقِيَانِ الشَّوَادِي

لم يكن همّ الشاعر أن يعطي نصه اهتماما في وصف الرياض فحسب، بل أن يقدم لوحته، ولذلك كان له أن ينجرّ من استقلالية البيت أو المقطع، أو أي شروء واستطراد، فتتم له أدوارها ضمن إطارها الطبيعي والفني.

إن المتمعن لقصائد ابن الرومي التراثية الغنائية، يجده صادقا عندما جرّح الكلمات ألما وبراحا، فأترعت القصيدة طربا وغناء، وتقطّرت رثاء حارا خالدا، حيث يقول: ²⁰

وَفِي أَرْبَعٍ مَنِّي خُلِقْتُ مِنْكَ أَرْبَعُ فَلَسْتُ بِدَارٍ أَتِيهَا هَاجَ لِي كَوْنِي
أَوْجَهْكَ فِي عَيْنِي أَمْ الرِّيقُ فِي فَمِي أَمْ النُّطْقُ فِي سَمْعِي أَمْ الْحُبُّ مَنِّي

كان لابني الرومي أن يعمق إحساسه في رثاء ولده، ويشرف في رؤيته، ويستوي مع الفكر والفلسفة، فيفلسف غياب الولد بعمق وصدق ليشرف على حقيقة الأبوة، فيقول كلمتها الخالدة: ²¹

وأولادنا مثل الجوارح أيها فقدناه
لكل مكان لا يسد اختلاله
كان الفاجع البين الفقد
مكان أخيه من جُزوع ولا جلد
من هنا نلاحظ أن ابن الرومي لم يعتمد الوصف وحده في رثائه، بل عمد إلى التحليل، فظهر تبدل أسلوبه من خلال ما سبق، حيث يظهر صادقاً في ذلك مع طباعه وخصائصه، ودون أن يفارق صفاء التمييز ووضوحه، ويظهر هذا في موقف الشاعر من الحادث ثم من فراق ولده.

نرى أن ابن الرومي قد اختلف عن غيره في رثائه ولده، ليس لكونه يستثير أشياء خارج ذاته، إنما عندما يتحدث عن نفسه، فلا الجبال تهتز، ولا الشمس تنطفئ، ولا البحر يغور، ولكنه -هو نفسه- يتألم ويعبر عن ألمه وفاجعته لتستوي ريشته عبارات وكلمات اقتضاها الحديث النفسي كقوله:²²

ولا بعث طوعاً ولكن غصبتُه
وإني -وإن مُعِيتُ بابني بعد-
أرى أخويك الباقيين كلاهما
وليس على ظلم الحادث من معدٍ
لذاكره ما هنت النيب في نجدٍ
يكونان للأحزان أوري من الرند

لقد جمع ابن الرومي في شعره بين الثقافة والعقل، بمعنى أن العقل لا يدع العاطفة تنساب عفواً، بل نراه يكبح جماحها بالتحليل والمقاربة ونلاحظ ذلك خاصة في المدح، حيث يخرج عن المألوف ويتنكر له، وهذا ينبئ عن صنيع ابن الرومي الشعري، فهو يقول في همزيته المطولة التي مدح فيها صديقه أبا القاسم الشطرنجي، وقد انقلب المدح فيها إلى لوم وعتاب وترجع بين المدح والذم:²³

يا أخي أين ريع ذلك اللقاء؟
أين مصداق شاهد كان يحلي
شاهد ما رأيت فعلك إلا
كشفت منك حاجتي هنوات
أينما كان بيننا من صفاء؟
أنت المخلص الصحيح الإخاء؟
غير ما شاهد له بالذكاء
غطيت برهة بحسن اللقاء

إن قصيدة ابن الرومي في رثاء ولده الأوسط رحبة المضمون، عميقة، سهلة التعبير، واضحة وهي صادقة، بل هي صدق نفس ابن الرومي في ألمه وحزنه، حياته وفكره، مشاعره ونزواته وكل شخصيته، وإذا الشاعر -الفنان نفسه- في أحلك ساعات يأسه وأساه لتخلد قصيدته كصورة عن شكل أب إنسان، بل كل أب إنسان، وانطفاء طفل وفقد رجاء. ويُعتبر ابن الرومي أول شاعر لم يتعامل مع الشعر أخلاقياً ولكن بشكل مباشر، فلا أقذاح، ولا تهشيم أعراض، ولا سباب -شيمة المثلث الأموي- إذ نراه قد تعامل مع المهجو فنياً، حيث نظر إليه من خارج، فرأى فيه نشازاً أو نتوءاً بارزاً لا ينسجم مع طبيعة الأشياء، وسيء الجمال. وشاعرنا صاحب الإحساس المرهف يدفعه ذلك في حرية طاغية إلى الانتقام، فيشن هجوماً شرساً على الصورة النشاز أو النتوء البارز، فيعمل فيهما ريشته وألوانه وتضخيماته التجسيدية، فيصب عليها ظلاله النفسية ورواه وأحلامه وهو أجسه.

فإذا بمجموعة الخطوط والألوان الشعرية تخرج عن كونها هجائية عادية إلى أن تصبح رسماً كاريكاتورياً ساحراً، ولوحة فنية رائعة. ومن هنا نشهد ولادة فن جديد يقوم على إبراز العيوب الجسدية الخارجية من أجل إبراز العيوب النفسية الداخلية تماماً كما يفعل الجاحظ في بخلائه. فابن الرومي لا يطبق أن يرى الجذب الفحل والعقم في حبيبته الطبيعة، ولكن يريد أن يراها طبيعة ربيعية مثقلة بالجني، مزهوة بالشباب، لذلك فهو يصرخ في وجه العوسج حيث يقول:²⁴

عَدَرْنَا النَّخْلَ مِنْ إِذَاءِ شَوْكِ
فَمَا لِلْعَوْسَجِ الْمَلْعُونِ أَبَدَى
لَنَا شَوْكًا بَلَا نَمْرٍ نَرَاهُ
ثَرَاهُ ظَنٌّ فِيهِ جَنَى كَرِيمًا
يَذُودُ بِهِ الْأَنَامِلَ عَنْ جَنَاهُ
فَأُظْهِرَ عُدَّةَ تَحْمِي جِمَاهُ
كَفَاهُ لَوْمْ مَجَنَاهُ، كَفَاهُ
فَلَا يَتَسَلَّحُنْ لِذَفْعِ كَفِّ

وهكذا يعكس لنا الرسام الكاريكاتوري دون أن يشعر جانباً كبيراً من جوانب المجتمع الفاسد، حيث يكثر فيه أمثال التافهين والخامدين والإمعات. وهذا ما جعله يثبت مقدرته اللامتناهية في التصوير والتلوين والسخرية والدعابة العفوية وهتك الأسرار وكشف الأفتنة المزيفة، كل ذلك لأنه هو نفسه كان ضحية لعبة الجمال والقبح في الحياة، جمال علمه وبرأته وحبه رغم تنكر المجتمع لكل حاملها وممثليها، وقبح الإنسان الغبي الذي يجده ابن الرومي في أعلى المناصب بادعائه العلم والمعرفة والبراعة والحب، حتى تهابه الناس وتقدره، ويجد نفسه (ابن الرومي) لصراحته وصدقه في أسفل سافلين. فحقّ لشاعرنا المفجوع بأماله أن يهجو الناس جميعاً حاكمين ومحكومين، وأن يهجو سوء الطالع والدهر الذي يسفل العالي ويعلي السافل حيث يقول:²⁵

فَلَيْطَرُ مَعْشَرٌ وَيَعْلُو فَأَتَنِي
لَا أَعْدُ الْعُلُوَّ مِنْهُمْ عُلوًّا
لَا أَرَاهُمْ إِلَّا بِأَسْفَلِ قَابِ
بَلْ طُفُوًّا يَمِينٌ غَيْرَ كَاذِبِ
جَيْفٌ أُنْتَنَتْ فَأَصْبَحَتْ عَلَى اللَّجَبِ
سَةِ وَالذُّرُّ تَحْتَهَا فِي حِجَابِ

ومرة أخرى يتدخل الشعر لينقد الهاجي والمهجو من العدم المحتوم فيخلقها من الحياة والأحياء، على ضعفه وتهافته، وقلة حيلته وتطيره ووسواسه، سوى أن يمر فيهما كالسراب لو لم يكن شاعراً. لقد تحدى بالشعر عدمية الوجود، ثم خلد بالشعر عدمية الوجود، حتى البشاعة تزهر وتضحك بين يديه لعلها أنها سوف تخلص معه، وتأخذ مكانها في متحف الفن الناطق. نرى الشاعر بكل ألوانه وظلاله النفسية وآلامه ونزوات الكبت فيه، يجعل لمجتمعه مكاناً في هجائته حيث يقول:²⁶

لِحَيَّةٍ يَحْمِلُهَا فَأَيْقُ
تَقُودُهُ الرِّيحُ بِهَا صَاغِرًا
مِثْلُ الشِّرَاعَيْنِ إِذَا أَشْرَعَا
فُودًا غَنِيْفًا يُتْعَبُ الْأَخْدَعَا
لَمْ يَنْبَعِثْ فِي وَجْهِهِ إَصْبَعَا
فَإِنْ عَذَا وَالرِّيحُ فِي وَجْهِهِ

أو غاصن في البحر بها غوصةً صــــادَ بها حيتانهُ أجمَعَا
 ذلكم هو ابن الرومي الجرح الغائر والسواد المائر
 الذي عاش حيناً، وما مات أبداً حين رسم الجمال وطلاقة الفن، ليعيش الكآبة والسعادة
 شهقة أمان، وزفرة أحزان، فتصير النوازل مدعاة للإبداع وسبيلاً للمجد والخلود. أما
 النوافل فنتركها للذين أشبعوه تأريخاً وحاموا حوله نعيقاً لا تغريداً، وسطحوه ولم يسبروه،
 ولو بعث حياً لتولى هجاءهم عناً وأشبعهم توبيخاً.

الهوامش:

- ¹ عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، المكتبة التجارية، القاهرة، ط 5، 1963، ص 207.
- ² إنعام الجندي، الرائد في الأدب العربي، الرائد الغربي، د ت، ج 2، ص 93.
- ³ ابن الرومي، الديوان، اختيار وتصنيف كامل الكيلاني، د ط، د ت، ص 396.
- ⁴ عباس محمود العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، ص 119.
- ⁵ بطرس البستاني، أدباء العرب في العصر العباسية، دار هارون عبود، لبنان، ج 2، 1979، ص 146.
- ⁶ ابن الرومي، الديوان، اختيار وتصنيف كامل الكيلاني، ص 398.
- ⁷ نعيم اليافي، مقدمة لدراسات الصورة الفنية، د ط، د ت.
- ⁸ العقاد، ساعات بين الكتب، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، د ط، 1961، ص 309.
- ⁹ يُنظر المرجع السابق، ص 309.
- ¹⁰ أنيس المقديسي، أمراء الشعر العربي في العصر العباسي، المكتبة المصرية الأنجلوسكسونية، ط 5، 1957، ص 251.
- ¹¹ العقاد، ابن الرومي حياته من شعره، ص 255.
- ¹² ابن الرومي، الديوان، اختيار وتصنيف كامل الكيلاني، ص 396.
- ¹³ المصدر نفسه، ص 356.
- ¹⁴ إيليا الحاوي، في النقد والأدب، ج 5، دار الكتاب اللبناني، بيروت/لبنان، ط 2، 1986، ص 50.
- ¹⁵ كاظم حطيط، دراسات في الأدب العربي، دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت/لبنان، ط 1، 1979، ص 88.
- ¹⁶ ابن الرومي، الديوان حياته وشعره، تحقيق كمال أبو مصلح، كتب بحثه إبراهيم عبد القادر المازني، المكتبة الحديثة للطباعة والنشر، بيروت، د ط، د ت، ص 203.
- ¹⁷ المصدر نفسه، ص 248.
- ¹⁸ المصدر نفسه، ص 272.
- ¹⁹ المصدر نفسه، ص 206.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص 168.
- ²¹ المصدر نفسه، ص 202.
- ²² المصدر نفسه، ص ص 202-203.
- ²³ المصدر نفسه، ص 125.
- ²⁴ المصدر نفسه، ص 146.
- ²⁵ المصدر نفسه، ص ص 153-154.
- ²⁶ المصدر نفسه، ص 218.